فتح بلاد الصرب والبوسنة والهرسك

هذه البلاد المسماه بالصرب والبوسنة والهرسك: تعد إحدى بلاد البلقان أو إحدى جزر البلقان، ولكن ما هي البلقان؟ وماذا تعنى هذه الكلمة؟ إن اصطلاح البلقان أو (بلقان)، يرجع إلى أصل لغوي تركي يعني كلمة (الجبل)، ومنذ بداية القرن التاسع عشر الميلادي، شملت هذه العبارة الجزر الثلاثة الواقعة في شرقي أوربا، والمتداخلة مع البر الأوربي الرئيسي، وهي تطلق اليوم على بلاد: اليونان، ألبانيا، يوغسلافيا، بلغاريا، ورومانيا، هذه الأقطار التي تشترك في وحدة جغرافية وتراث سياسي امتد طيلة خمسة قرون من الحكم العثماني.

فبعد أن حقق الله النصر على يد السلطان محمد الفاتح بفتحة القسطنطينية، اتجه إلى التعمير والبناء فيها، ثم عاد إلى أدرنة حيث استُقبِلَ استقبال الأبطال الظافرين المنتصرين، وكان هناك بعض الوقت ثم ذهب إلى بروسه للاستجمام واستجماع القوة قبل أن يستأنف حروبه وفتوحاته.

أصبح فتح القسطنطينية حدثًا عظيمًا يؤكد أن الطريق أصبح مفتوحًا أمام العثمانيين لكي يبسطوا سيادتهم على كثير من أجزاء البلقان، وقد كان هذا الفتح هو الذي مهد الطريق أمام الفاتح لكي يفتح البلاد الصربية واليونان والقرم والجزر الرئيسية في الأرخبيل، وقد تم ذل للفاتح في وقت طويل بلغ بضعة وعشرين عامًا.

وقد استهل محمد الفاتح فتوحاته في أوربا بصربية، والتي أصبحت تقع بين المطرقة والسندان، أو بمعني أصح أصبحت تقع بين الدولة العثمانية في الشرق، وبين الدولة المجرية الكاثوليكية من الغرب.

كان أمير صربيا في ذلك الوقت هو (جورج برنكوفيتش)، وكان الأتراك يسمونه (يوركي)، ولم يكن جورج برنكو هذا مخلصًا، فبالرغم أنه كان يلوذ بالعثمانيين إذا جاءه الخطر من المجر، وكان يدفع لهم الجزية، إلا أنه كان يخادعهم ويتربص بهم حتى أن السلطان محمد الفاتح قال عنه يومًا: «كان يظهر الصداقة ويبطن العداوة».

ومما يثبت ذلك أن بعض الدول الأوربية أرادت أن تتحالف ضد محمد الفاتح الذي عظم خطره على أوربا بعد فتح القسطنطينية، فأرسلت إلى (يوركي) هذا ملك الصرب، فبادر بالموافقة على الفور وأيد هذا الحلف وإنضم إليه، ولما علم محمد الفاتح بذلك من خلال عيونه المنتشرة في كل مكان، شعر بخطورة يوركي وصربيا، فقرر أن يبادر بالعمل ويعمل ضدهم، ويغزو صربيا قبل أن تتجمع قوات هذا الحلف داخل صربيا وتنطلق لمهاجمته.

زحف السلطان محمد الفاتح نحو صربيا، فلما علم جورج برنكوفيتش (يوركي) بزحف السلطان الفاتح نحوه أمر الناس أن يلجأوا إلى الأماكن الحصينة، وفر هو إلى المجر بعد أن وعدهم بأنه سيأتيهم بالمدد والقوة من هناك[1].

وانطلق الفاتح حتى وصل إلى مدينة صوفيا، وفيها ترك معظم جيشه ليكون ردءًا له، وسار ببقية الجيش ثم قسَّمه إلى كتيبتين اتجهت إحداهما إلى أوستراوز واحتلتها واتجهت الأخرى إلى سمندرة المحصنة، فصعب عليها فتحها لقسوة الشتاء، فعاد السلطان محمد الفاتح إلى أدرنة بعد أن ترك قائده (فيروز بك) في

(١) «محمد الفاتح» د/ سالم الرشيدي.

عدد من الجند بمدينة كرسوفاز على نهر مورافا، ولكنه لم يقو على صد الجيش الذي جاء به هونياد وبرنكوفيتش، فتمكنا منه وأوقعا به الهزيمة ووقع أسيرًا في أيديهما، ثم اتجها إلى بيروتا وديدين فأحرقا هاتين المدينتين ونهباها.

وما إن علم السلطان محمد الفاتح بهزيمة جيشة حتى خرج من فوره إلي أدرنة وعسكر بين بيروتا وصوفيا، وكان هونياد قد عاد إلى المجر، ووجد (برنكوفيتش) ملك الصرب نفسه ضعيفًا أمام قوة السلطان الفاتح فاستسلم وقبل دفع جزية سنوية مقدارها ثلاثون ألف دوك ذهبي، وعاد السلطان الفاتح إلى القسطنطينية ريثما تواتيه الأحوال الجوية ويتحسن الطقس، فقد كان الجو شديد البرودة، وعندما يتحسن سيواصل الحرب.

وجاء ربيع سنة (٨٥٩هـ - ١٤٥٥م)، فزحف السلطان محمد الفاتح إلى صربية، وحاصر نوقوبردة أغنى مدينة صربية على الإطلاق، فقد كانت بحق مدينة المناجم، وسُميت (أمُ المدن)، وهذه المدينة كانت منطقة صراع بين العثمانيين والصرب، فقد سبق أن استولى عليها العثمانيون ثم استردها الصرب.

حاصر محمد الفاتح (أم المدن) لمدة أسبوع، وبعد أسبوع استسلمت هذه المدينة للسلطان محمد الفاتح، في أول يونيو ١٤٥٥ فجعل عليها واليًا وقاضيًا وقائدا للقلعة، وأخضع الفاتح بعد ذلك عدة قلاع أخرى، ثم عاد إلى القسطنطينية ولم يبق أمامه من قلاع في صربية غير بلغراد.

شعر الناس في أوربا بالخطر الإسلامي المتمثل في العثمانيين، وأحسوا بالتهديد، فقد سقطت القسطنطينية قبل عامين، وقد كانت معقل النصرانية في أقصى شرق قارة أوربا، وفكر الناس أنه إذا استولى العثمانيين على بلغراد وهي

(بوابة المجر) فلن يقف في سبيلهم بعد ذلك شيء، ومن ثم تفتح ألمانيا وأوربا كلها، فهب الراهب كايستراثو يلهب صدورالناس ويشد من عزائمهم، وقد كان خطيبًا منوهًا مثيرًا، وجاب بلاد أسبانيا وفرنسا والمجر وألمانيا وبولندا يدعو الناس إلى حرب صليبية على الأتراك العثمانيين.

وكذلك فعل البابا كاليكست الثالث، فدعا أهل أوربا إلى قتال العثمانيين، واختار (هونياد) القائد المجري ليتولى قيادة الحملة الصليبية، يعاونه في ذلك مندوبه جان أنجيلوا، وكان جان أنجيلوا راهبًا متحمسًا خطيبًا.

واستعد الحلف الصليبي الذي شمل ملك المجر وملك أرجونة وأمراء من إيطاليا والبنادقة والجنويين وفرسان دودس وألمانيا بولندا وصربيا، وتجمعت جيوشهم الجرارة تحت لواء هونياد لطرد العثمانيين من أوربا وإعادتهم إلى الشرق مرة أخرى.